

الآلم والشخصية

ما أقوى تأثير الآلم في الطباع . وما أبلغه في تربية الشخصية . وتقوية الإرادة .

حظرت بيالى علاقة الآلم بتكوين الأشخاص . حينما رأيت شاباً مستهتراً لا يرى الحياة إلا لذة ساعات . وعيش لحظات . وكان المال يجري بين يديه . والفراغ والشباب ملء برديه . فظل سادراً في غيه ، مبالغاً في استهتاره . يقضى أياماً خاملة رتيبه لا تثمر خيراً لبلاده . ولا تترك أثراً صالحاً لنفسه ووطنه . يمضيها لا بأسو على شئ . فاته . ولا يرجو شيئاً من غده . وظل القدر يمهله ويمهله ثم فتح عليه جعبة سهامه . وأخذ يرميه منها . واحداً تلو الآخر . حتى تفتحت عينه على حقائق حياته المرة ، وجنبااته مشخنة بالجراح . وفقد والديه وهما مصدر ماله ومهبط آماله . وتركاه في الحياة صفر اليدين . ليتخلى عنه الرفاق . ويحد نفسه مرغماً على أن يطرق أبواب الحياة بنفسه . فاستعصى عليه الكثير منها . إلا أن الحاجة ظلت تدفعه . والحرمان يستحثه . حتى أكرهاه على البطولة التي كان يفنقرها في أيام لوه . واستطاع أن يلج الحياة من أبوابها الواسعة . وتحول الشاب الماجن — وقد صهرته تجارب الحياة وقسوتها — رجلاً صلب الإرادة . قوى العزيمة يثق بنفسه التي رأت الحياة في لونها . وأصبحت له رسالة يسعى جاهداً لتحقيقها .

وأدركت أن الآلام لا تخلو من وجه جميل ، وناحية رائعة . وأنها عنصر هام من عناصر وجود الإنسان . وأدركت أهمية الآلم فوق أثره يوم عرفت أن اللذة لا تسمو قيمتها إلا إذا سبقها الآلم . وأن حلو الحياة لا يعرف إلا بمرها . وأن سعادة الإنسان لا تتصور إلا بشقائه . وعرفت أن الآلم ما لم تصل ضرباته إلى درجة التحطيم . وما لم تبلغ قسوته درجة قتل الإرادة وفساد العزيمة . يعتبر أهم ركن من أركان تربية النفس وتقوية الشخصية . .

وتستطيع أن تقارن بين شخص ورث المجد والمال لم يبذل فيهما جهداً . وشخص كافح وناضل وتآلم . فأسس مجده بتعبه وجده ولم يدخر في سبيله سعياً . وتستطيع أن

تقارن بين العصامين الذين أسسوا حياتهم بجهدهم وعرق جباههم . وبين هؤلاء الذين ولدوا وفي أفواههم ملاعق من الذهب . . . واتضحت هذه الحقيقة حينما أخذت أقارن بين إنتاج الأديب في ظلال الثقافة والحرمان . وبين إنتاجه في ظلال الترف والنعيم . فعرفت أن أجمل شعر قاله حافظ يوم كان منبعه الفاقة : ومصدره الحرمان ، فلما عرف النعمة والترف في مكتبته (بدار الكتب) جف منبعه ونضب معينه . وعلمت أن أروع أدب أنتجه المنفلوطي هو ما كتبه بدموعه يوم ودع زوجته إلى مقرها الأخير . وأن أجمل ما كتبه الزيات يوم رنى (رجاءه) في وفاته .

والأديب العالمي (مكسيم جوركي) كان مثالا رائعا . والأديب الملهم الموفق يوم كان يرزح تحت قسوة القياصرة في روسيا فلما ذاق النعيم في ظلال البلشفية خمدت شعلة العبقرية . وانطفأ مصباح الأدب . فلم تتأجج عبقريته إلا في رحاب الحرمان .

إن النعمة تفسد الطبيعة البشرية . فلا بد لها من شقاء يصلحها . والحديد قد يفسد فلا بد له من نار تذيبه . وكذلك النفوس يطغىها النعيم . ويصدتها الترف . لذلك لا تظهر معادن الناس إلا عند الشدائد . ولا تعرف حقيقتها إلا في المحن . وكان صادقاً من قال : « أعرف الناس بالناس . الممرضات في المستشفيات » فهن يرين الناس في الكوارث فيعرفن كيف يحتملون المتاعب وكيف يجزعون منها ، وكيف يصبرون وينزعون . أما في الخارج فالجميع يخفى مظهرهم مخبرهم . وكلهم أبطال حيث لا ميدان ؛ وقد كان أحد قواد الحرب من الألمان يخاطب جنوده وقد ظهرت بوادر الهزيمة قائلاً : « إن البطولة في النصر شيء هين . ولكن حقائق البطولة لا تظهر إلا في ظلال الهزيمة » .

ولا شك أن أصلب الناس عوداً عند الشدائد هم من تعودوها . وأثبتهم قلباً عند النوازل هم من مارسوها .

أحمد اللباد